

قصة

الطريق الغاسقة

جمال بن عبدالله الحيمان



رقم الإيداع الدولي :

ISBN : 110-444-65-9021

تحقيق ومراجعة :

الشرطي الخلل والصدیق

إهداء :

إلى أصدقاء عالم الفايستوك
شكرا على تشجيعكم المتواصل

أتم الشّغف ...

أتم الطموح ...

وأتم في كتاباتي ...

الهدف ...

يا أحبائي ...

بوركم ...

وبورك إخلاصكم ...

وكم كان ذلك المنظر خداعا ، وقد عجت الطريق بعدد غير قليل من السكارى الذين طردتهم الحانات .

كان رأيي الرابع أشد تفاؤلا ، رافعا وجهه نحوهم ، طافحا بالرضا وهو يثرثر كهادته . علّق الأول على جوابه بشيء من الابتهاج قائلا :

__ ولكن بقي أن نأمل فقط ...!

ردّ الثاني الصامت المرتبك الذي يزداد صمتا بعد صمت :

__ مستقبل يغلق أبوابه ببطء .

شُحن الجو بعاطفة ملتهبة ، مخط الثالث أنفه في منشفة ذات مربعات ، وجفف شاربه ، أبرقت السماء فجأة ، وسمع دويّ رعد مزلزل . أصبحوا وحيدين بشكل يلفث النظر .

قال الأول :

__ وبالفعل كل ما نستطيع أن نأمله هو ألا نبتلّ ...!

فأوى كل واحد منهم لتحت الفناء المسقوف ، وبدؤوا يطلعون بعضهم البعض عن نتائج
الرهان فقال الرابع بعد فترة صمت :

_ أزمات لا طائل من ورائها ، فكل يوم أتخيل رأسي في زنزاة مظلمة باردة مع
القرآن والصرابير ، ورأسي تطوف بها شتى الخواطر الخرقاء ، وأنتحب بجرقة ، وبعد
ساعة من ذلك أعط في نوم عميق وقد هدهدت الآمال الحلوة روحي .
تكلم الأول بصوت حاد :

_ دائما أقاوم تلك الدموع ، وأحاول إقناع نفسي أنني سأنجح ذات يوم ، وكل مرة
هناك دموع غزيرة تذرف ، أصاب بالسهاد ولكني أتخلص من ذلك بالعد حتى المائة ،
فتباغتني تلك السنّة وأستسلم للنوم مباشرة .

قلص الثاني الصامت شفثيه ومسح عينيه بقبضته السوداء وأجهش ، وغمس يده في بركة
من ماء المطر الموحل ، وصار يلطخ وجنتيه وجبهته وعنقه وهو ينوح ، وصمت طويل
تناغم والهواء المنعش . يدق الأرض بجذائه اللباد ندما على ما قرط فيه من قبل .

تبسّم لهم الثالث بوجهه الشاحب وعينيه الثمليتين وهم ينهارون أمامه واحدا تلو الآخر ،
مدثرا في معطفه الفضفاض ، وقد حوّلوا نظرهم إلى النافذة المظلمة التي عكست ضوء
شمعة متذبذب .

فرش عل فخذيه ورقة مجمدة وراح يكتب لكل سكير هرطقاته ، فأخرج قلمًا ، وكلهم يراقب ، ورياح الشتاء تلمح وجوههم الذابالة الشاحبة المكتئبة ، يتطلعون إلى السماء بنظرة حزينة ملتاعة ، والغربان تصيح بصخب وهي تأوي إلى النوم .

همومهم تكتب وأنفاسهم تمضي كأنما تساق إلى ساحة الإعدام ، ولكنها تمضي بإقدام ...
قرر الثالث وأخيرا أن يُعطي كل واحد ورقة اعترافه بأحاسيسه وآلامه وقال مازحا :
_ لا يهتم من أي وعاء تشرب ، المهم أن تصبح ثملا .

ضحكوا بقوة ، وافترقوا إلى حين .

بعد كل هذه الأماسي التي يعاد فيها نفس التأثير ونفس هذا النوع من الكفاح الواهم .
اضطروا مرغمين أن تكون هذه الجلسة آخر نقاش في الموضوع ، كل واحد وشؤونه الخاصة ، وليستمتعوا بتلك الكأس ، فلا شيء كائن أصلا .

فأيها أجدى وأنفع ...!

يكفي أن نأمل ونألم ...!

في كل عام تراودنا تلك الأيام المضنية ، فما قد يراه البعض معنى مجردا ، قد يراه الآخر أمرا حقيقيا .

في مساء اليوم التالي كما هو متعاهد عليه ، أتجه الثالث للحانة كي يشرب القليل من "البيرة" وإن كان الجو مناسبا وصادف حسناء جميلة ، أظن أنه سيرتقي لزجاجة فودكا ، وسيكرم الساقى وسيعتذر لزملائه ، فقد مضى وقت طويل ...

فبعدهما حُرْم من النور الإلهي ، صار يتخبط - لوقت طويل - في دياجير الظلمات ، فمن خلف الستار المهتز من وقع المطر ، دخلت تلك الشقراء والتي كان له بها عهد منذ زمن بعيد ، فالتتو بدأت سحب من الثمالة تجتاح مرمى بصره ، وصهل من الهلع ، ونيران الشموع على الكنبه تتمايل وتحديث أزيها ، وقد أضاءت تلك الجميلة ربوع الحانة شبه المظلمة ، وحملت بين جنباتها كلما تحويه لغة مدينة تستيقظ ، محدثة شيئا من الجلبة والضوضاء المكتومة ، ولا أمل له فيها سوى أنه اكتفى بالحنين وحياة المعزل .

غاب الأصدقاء هذه المرة ، وقد تكون مضايقة مؤقتة صادفتهم - على حد قوله - لا تعرقل إلا بعضا من عاداتهم ، وله معهم يوم آخر ، ونشاط جديد يبعثه فيهم نسيم لياليهم الباردة .

فوسط السكون المطلق ، كان وقع غياهم أشد وأقوى ، وبدأ يزداد ذلك يوما بعد يوم ، صار يرى أشباح بشر وراء الشبايك . يضع راحته على وجهه وهو ييكي ، وفي بعض الأحيان يجلس القرفصاء تحت الفناء المسقوف ، مما يحيله لدوامة خوف وعصبية مستفزة . اشتاق لحركاتهم النشيطة السريعة وتلك الأرجل التي لا ترتاح على الأرض ، ولا زالت تلك الغرفة المظلمة تعكس نور الشمعة المتذبذب .

كانت ليالي مليئة بالأنين ، وسمعه يرهف لهمهمات الليل الغامضة ، وأخذت الكلمات تخرج متعثرة من فمه الأرد والعرق يتصبب على وجهه الأبيض الشاحب .

__ ماذا حدث يا ترى ...!

مرت السنون بسرعة ، وقد حفظ عهد الزبونية للحانة ، مخلصا لها ولأجوائها ، ولقطقات شموعها الوهجة .

كان الغسق قد غاب منذ وقت بعيد ، وطل المساء بكل أبعاده وغاب النهار في سباق عميق هادئ ، فبحوار تلك البركة ، هام بأفكاره نحو المجهول إلى أن باغته ذلك الكلب المسعور ، زرّ عينيه واختفى ظله وراء خمائل الصفصاف ، باغته وهو يشرب الكحول في صمت ، وقد خيمت الكآبة والحزن عليه ، ظلّ خمسة أيام أسيرا ذاهلا ، فليس هناك مرض أشد عذابا وفضاعة من السعار ، فلا مجال كي يتظاهر بالجلد والشجاعة .
اتصل جبل الحديث بينه وبين الطبيب ، وقد سُقي جرحه بأنواع الأدوية المؤلمة ، وتجرّع في بطنه كل مشروب كريه ، وأصيب بالسعار رغم ذلك كله .

فكّر لا إراديا أن حياة الإنسان وسعادته مرهونة أحيانا بالصدف والأشياء التافهة ، فبعينين غاضبتين كئيبتين أصبح وأخيرا ذلك الهزيل الشاحب المشعث وقد ذبل من الألم والسهاد .
ألم شديد في رجله اليمنى ، وحمى لا تنقص حدتها ، وهلوسات بين الفينة والأخرى ، لقد بدأ يحس بيقين الفراق والرحيل ، ينتظر تلك الوجوه الملائكية ، وقد انتشخت خداه العريضان ، وحظت عيناه ، ففاضت روحه لبارئها .

خيم الحزن على أصدقائه وقد علموا فراق الوفي . حضروا حفل التأبين ، تبادلوا التعازي واجتمعوا من جديد .

جلال الموقف جعلهم يمشون لا إراديا على أطراف أصابعهم ، ويحفظون توازنهم بأيديهم أثناء المشي ، فكروا مليا ، و رأي الثاني الصامت المرتبك قادم بعد منتصف الليل لتحت الفناء المستوف ، وقفوا مستحضرين تلك اللحظات الغابرة ، واجمين منبهرين ، فقد انطفأت تلك الشمعة ، وغاب نور الغرفة المتذبذب ، وقد علموا أن صاحبهم قد أضاء لهم تلك الطريق الغاسقة - التي تقود إلى الخلاص - حين كتب لهم اعترافهم تلك الليلة .
وشيئا فشيئا بدؤوا ينسجمون مع هذا المزاج الانطوائي ، وأخذوا يستغرقون في التفكير وقد تسربت إلى أذهانهم ذكريات تلك الليالي الباردة .

هذه الكلمات التي بقيت مكتوبة للغد ، أصبحت تضيئ سحرا خاصا ، بل وصارت لغزا يشير الأشجان ، ويظل اللغز لغزا ! وكل منا سيفكر جيّدا ، ومن جديد ستزأر الريح وستتأثر القضبان .

وفي تمام الثانية صباحا ، بدأ المطر بالهطول ، وانسحب الجميع مغادرين إلى الأبد .

انتهى بفضل الله وكرمه في 30 صفر 1442 هـ / الموافق ل 17 أكتوبر 2020 م.